بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّـذِينَ آمَنُـوا هلْ أَدُلُّكمْ عَلَىٰ تجارَة تُنْجِيكُم مِّنْ عَذَاب أَلِيم . تُؤْمنُـون بالله وَرَسُوله وَتجَاهِـدُونَ فى سَبيل الله بـأَمْـوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خيرٌ لَّكُمْ إنْ كُنْتـمْ تَعْلَمُـونَ . يَغفر لَّكمْ ذُنـوبَكُمْ وَيُـدْخِلكُـمْ جَنَّـاتٍ تَجرِى مِنْ تَحتهـا ٱلأنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طيِّبَة فى جَنَّاتِ عَدْن ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ الْعَظيمُ . وأُخـرَى تحبـونَهَا نَصْرٌ من الله وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمؤْمنِينَ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[الصَّفّ : الآيات ١٠ ـ ١٣]

حديثنا هذه المرة عن الجهاد والقتـال فى سبيل الله أو دفاعاً عن دار الإسلام وآيات الجهاد فى القـرآن الكريم كثيرة ، لأن الجهاد ركن من أركان هـذا الدين ، وقد جئت بالحديث عن الجهاد بعـد أن تحدثنا عن العبادات الإسلامية الأربع :

الصلاة والزكاة والصيام والحج إلى بيت الله الحرام ، لأننا سنرى أن الجهاد فرض مكتوب على كل مسلم ، وأنه فرض عين لا فرض كفاية ، والأمر هنا لا يقتصر على الجهاد لنشر الدين أو القتال ذوداً عن حوض الملة ، ولأن القتال للدين والوطن والكرامة فيه عزة وسمو بنفس المؤمن لا يتيسران بدونه . فإن من أكبر ماضر أمة الإسلام مذهب بعض الفقهاء فى أن الجهاد فرض كفاية تنوب فيه القلة عن الغالبية ، لأن هذا المذهب حرم المسلمين من شرف الدفاع عن دار الإسلام وديارهم ، وجعلهم رعية مستذلة لحكام أراذل يعتمدون على جند مرتزقة ملاعين وسنفصل الأمر فى ذلك تفصيلاً .

وقد اخترت الآية التى تراها فى رأس هذا الفصل ، لأنك ترى أن الله سبحانه قرن بين الإيمان بالله ورسوله والقتال فى سبيل الله دون ذكر لصلاة أو صيام أو أى فرض آخر ، ألأنه سبحانه أراد هنا أن يبين أن الجهاد فرض واجب يلزم كل مسلم ، مثله فى ذلك مثل أى عبادة أخرى من المفروضات ، فكما أن على المسلم أن يصلى ويزكى ويصوم ويحج فإن عليه أن يجاهد فى سبيل دينه ، وان يكون دائماً على الأهبة للقيام بهذا الفرض العظيم الذى تتوقف على القيام به حياة الأمة عزيزة قوية ، والأمة القوية العزيزة أمة شريفة نشيطة عاملة محسنة عالمة تسير مع أمم الطليعة على هذا الكوكب .

وقبل أن أسترسل مع هذا الحديث أحب أن أنبه إلى ماتتضمنه هذه الآيات من بلاغة قرآنية معجزة ، فأنت ترى هنا أن الله سبحانه يعبر عن دخول الدين بلفظ تجارة ، وهو سبحانه يأخذ هنا اللفظ العادى ويرتفع به فيعطيه معنى شريفاً ، فالإسلام هنا صفقة عدل ، أو هو موثق بين الله وعبده ، فهو يدخل الدين عن إيمان صادق ويجاهد فى سبيل الله بماله ونفسه ، وهو يفعل لنفسه بذلك خيراً عظيماً ، ولكن الله يزيده على ذلك نعمة كبرى ، فهو يغفر له ذنوبه ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ويهبه مساكن طيبة فى جنات عدن ،

وذلك فى ذاته هو الفوز العظيم . . لا يقف هنا كرم الله بل إنه يعد المؤمن بالنصر من الله والفتح القريب .

والجهاد فى كل آيات القرآن فرض على المسلم ، واقرأ الآيات التالية :

﴿ إنَّ الله اشْتَرَى من المؤْمنينَ أنفسهمْ وأمـوالَهمْ بأن لهُم الجنــةَ يُقـاتلـونَ فى سَبيلِ الله فيقتلـونَ ويُقتلـونَ وعداً عليـهِ حقـاً فى التـوراةِ والإنجيلِ والقُرآنِ ومَن أوْفَى بعهدِه مـن الله فـاسْتَبْشروا بِبيعكِم الـَّذى بايَعتُم به وذلك هو الفوْز العظيمُ ﴾ [التوبة ٩/ ١١١] .

فهنا تـرى بكل وضوح أن الجهـاد فى سبيل الله فرض لازب ، وأنـه جزء من مـوثق المؤمن مع الله ، وهـذا الموثق الـذى يبيع الإنسان فيه نفســه فى سبيل الله ويقـاتل فيقتل أو يُقتل ، فيفوز فى مقـابل ذلك بالجنة ، وهى فوز لـه عظيم . فليستبشر المؤمنون بهذ الميثاق الجليل مع خالق الكون سبحانه .

ولكى ترى أن الجهاد فرض عين يلزم المؤمنين جميعاً اقرأ هذه الآيات :

﴿ إنَّ عـدَّة الشُهُور عنـد الله اثْنَا عشَر شهـراً فى كِتَاب الله يـومَ خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ منهـا أربعة حُـرُم . ذلك الدين القيمُ فـلا تظلموا فيهنَّ أنفسكم وقاتِلـوا المشْركِينَ كافـة كما يقاتلـونكم كافـة واعْلَمُوا أن الله مع المتقِين ﴾ .

[التوبة ٩/ ٣٦] .

فهنا ترى أن علينا كافة أن نقاتل المشركين كما يقاتلوننا كافة .

وقوله تعالى **﴿ ذلك الدين القيم ﴾** يفسره ابن كثير ومحمد فريد وجدى بأن تحريم القتال فى الأشهر الحرم هو الدين العظيم ، وقـد يكون هذا هو المراد ولكنه فى رأيى ليس كل المراد ، فإن السيـاق يدل على أن المراد بـالدين القيم هنـا الدين

الدائم أبد الدهر الذى يعزه الله بأهله وبالجهاد الدائم فى سبيله ، وبمراعاة قانون الجهاد فيه ، ومن هذه القواعد مراعاة الأشهر الحرم ، وإيقاف القتال فيها إذا سمحت ظروف الحرب بذلك ، لأن السنة كلها لا يمكن أن تكون جهاداً للمسلمين فلابد لهم من فترة راحة واستعداد وتدبير ورسم خطط .

واقرأ هذه الآيات من سورة آل عمران وهى تدور حول موقعة أحد :

﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

[آل عمران ٣/ ١٦٦ ـ ١٧٠] .

وهاهنا معان عظيمة تكشف عن مرادات الله سبحانه من أمته . فالجهاد فرض على المسلم . والنكوص عنه كذب وضعف ونفاق ، بل إن الناكص عن الجهاد أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان ، وقعود الإنسان عن الجهاد لا يدرأ عنه الموت ، وقعود الإنسان عن القتال فى سبيل الله مصادرة لقدر الله فى الآجال . ثم تجىء بعد ذلك الآية التى تقول إن الذين قتلوا فى سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، وهذا كلام صدق يفسره الله فى الآيات التى تلى هذه الآيات ، فإن الذين يستشهدون فى سبيل الله يذهبون إلى جنات عرضها السموات والأرض وهم فى نفس الوقت يؤمنون سلامة الأمة ، ولذلك فهم يستبشرون بالذين لم

يلحقوا بهم فى الشهادة وبقوا خلفهم ، فهؤلاء ستستمر عن طريقهم حياة الأمة ، وهم بشهادة من سبقوهم آمنون لا خوف عليهم ولا يحزنون ، وهم يبقون مستعدين للقتال والجهاد إذا دعا الداعى ، فأمة الإسلام لابد لها أن تكون على أهبة القتال ماعاشت ومابقى زمان .

وإذا كنا نتخذ رسول الله ﷺ قدوة لنا ونعتبر تصرفه سنة نتبعها ، فلننظر فى حياته الشريفة ، ونرى موقفه من الجهاد ، فنرى أنه منذ استقر به المقام فى المدينة وقامت أمة الإسلام من حوله بدأ بعملية طويلة ، أول غاياتها توسيع وطن الأمة بإدخال الناس وأوطانهم فيها ، لأننا عندما نقول إن رسول الله بمجرد استقراره فى المدينة وعقد الميثاق بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم وجاهد معهم من اليهود ، أرسل عبد الله بن جحش فى سرية كبيرة إلى بلد قبيلة جهينة ، وكانت من أكبر وأقوى القبائل القضاعية النازلة فى الحجاز من ينبع جنوباً إلى ذى خشُب قرب تيماء شمالاً ، فمضى عبد الله فى قوة كبيرة ونزل بأرض جهينة وسارع للاتصال به مجدى بن عمرو رئيس جهينة ، فطلب مجدى إلى عبد الله بن جحش أن يعطى رسول الله الجهنيين موثقاً « نأمنك به وتأمننا » فأوثق لهم رسول الله الموثق الذى طلبوه ، وعاد عبد الله إلى المدينة ولم يسلم الجهنيون هذه المرة ، ثم وفد مجدى على رسول الله فى المدينة فحباه وأكرمه ، ويظهر أن مجدى ومن معه أسلموا حينذاك لأننا سنجد بنى جهينة بعد ذلك مسلمين ، وبعد إسلام جهينة أصبحت أراضيها جزءاً من وطن أمة الإسلام ، وليس معنى ذلك أن المسلمين امتلكوها ، بل المعنى أن منازل الجهنيين ظلت لهم ولكن المسلمين أصبحوا مسئولين عن سلامتها ، وأصبح مجدى بن عمرو وبقية الجهنيين مواطنين فى أمة الإسلام ، بدليل أن رسول لله ﷺ قال لمجدى : هل أقطعك ينبع ! ورسول الله لا يستطيع أن يقول هذا إلا إذا كانت أرض جهينة أرضاً إسلامية ، ورسول الله أراد أن يختصه بينبع . فقال مجدى ، إنى رجل قد كبرت سنى فأقطعها لابن أخى

وكـان معنى ذلك أيضاً أن أرض بنى جهينـة أصبحت أرضـاً محرمة على قـريش وقوافلها ، بدليل أن رسول الله عندما خـرج فى غزوة بواط لمح اعوجاجا فى سلوك مجدى وأحس فيه ميلاً إلى مواصلة العلاقات الطيبة مع قريش ، فقال له : أتريد أن ننبذ إليك ! أى أتحب أن نقطـع العهد الـذى بينك وبيننا ؟ فقال مجـدى : لا حاجة بنا إلى قتالك . وكل ذلك حدث فى العام الأول للهجرة .

ومن ذلك الحين بدأ رسول الله يخرج فى غزواتـه ويرسل سراياه بمعدل اثنين تقريباً فى الشهر ، لأن أكبر غاياته كان تحويل أمة المسلمين كلها إلى جيش مجاهد فلم يدع مسلماً قادراً على القتال إلا خرج فى سرية أو غزاة .

ومن سرية سيف البحـر التى قادهـا عمه حمزة بن عبـد المطلب فى رمضان سنة ١ هـ / مـارس ٦٢٣ م . إلى سرية نخلة التى قادهـا عبد الله بن جحش فى رجب سنة ٢ هـ/ فبراير ٦٢٤ م . وهى الثامنة من مغازيه ﷺ وهى السابقة على بدر والممهدة لها ، كانت أمة المدينة قد دخلت فعلاً فى التحول إلى أمة جيش أى أمة مجاهـدة ، ثم كـانت بـدر الفاصلة فى ١٩ رمضـان ٢ هـ / ١٥ مـارس سنة ٦٢٤ م . وهى التى اشترك فيهـا المهـاجـرون والأنصـار وبعض القضـاعيين فى القتال لأول مـرة ، وبها بدأ السير الحثيث فى طـريق الجهـاد ، ولم يترك رسول الله عضواً من أعضاء الأمة إلا أعطاه فرصة القتال والتدرب عليه ، وأصبح الجهاد فى سبيل الله والإسلام جزءاً أسياسيـاً من واجبات كل مسلم قادر على القتال ، فلما كانت غزوة تبـوك (رجب ـ رمضان سنة ٩ هـ/ أكتوبـر ـ ديسمبر سنة ٦٣٠ م) ونزلت بعـدها سورة بـراءة وهى سورة التوبـة أيضاً ، تقرر فيهـا أن القتال أصبح فـرضاً واجبـاً على كل مسلم ، ويعاقب من يتخلف عنـه أو يتهاون فى أمـره أو ينافق فيه . ولا مجال للقول بعد أن نزلت سورة التوبة بأن فرض القتال قد نسخ ، لأن سورة التوبة بإجماع معظم علماء القرآن كـانت آخر ما أنزل على رسول الله من سور القرآن الكريم .

فلنقف لحظات عند سورة التوبة .

ولكى نفهم سورة التوبة حق الفهم . ونضع أيدينا على ماتضمه من الحكم والمواعظ والمعانى الجليلة ، نقول كلمتين عن غزوة تبوك التى سبقتها ، وقد بدأت آيات سورة التوبة تتنزل على رسول الله وهو عائد من تبوك ، وسورة التوبة على أغلب الأحوال هى آخر ما نزل على رسول الله من سور القرآن ، فأحكامها قائمة سارية إلى أن يطوى الله الأرض وماعليها ، إذ لا يمكن القول بأن الله أنزل بعدها ماينسخ بعض أحكامها .

تبوك هى الرابعة والثمانون من مغازى رسول الله ﷺ وقد خرج بها رسول الله فى رجب وعاد فى رمضان سنة ٩ للهجرة / أكتوبر ــ ديسمبر ٦٣٠ م ، وهى تجىء ضمن عدد من المغازى قام بها رسول الله أو أرسلها إكمالاً لتوحيد الجزيرة تحت راية الإسلام وقضاءً على ما بقى نـاشزاً من القبائل ، مع الاهتمام الخاص بشمال الجزيرة وحدودها مع الروم ، وكانت تسكن هذه الحدود وفى دواخل الشام قبائل تنصر معظمها ودخل فى جملة مايسمى بعرب الروم أو نصارى العرب أو عرب الضاحية ، ضاحية قضاعة ، وهى قبائل عربية كانت تسكن على وجه التقريب ما يعرف الآن بأراضى المملكة العربية الهاشمية .

ويبدو أن رسول الله ﷺ كان يمهد فى ذلك الحين للخروج بالإسلام إلى خارج الجزيرة ، فنحن الآن فى العام التاسع للهجرة وهو عام الجماعة ، والوفود تقبل على المدينة وتعلن انضمام قبائلها إلى أمة الجزيرة ، ثم إن رسول الله ﷺ لم ينس ما وقع للمسلمين فى مؤتة بأرض البلقاء جنوبى البحر الميت قبل ذلك بعام فاستقر رأيه على أن يسير بالمسلمين إلى تبوك .

وكان رسول الله قد قرر القيام بهذه الغزوة البعيدة ليختبر أمة الإسلام ويعجم عودها ويدربها على القيام بالأعمال العسكرية الكبيرة العسيرة ، وفى

تقدير الحق سبحانه أن تكون هذه الغزاة تمهيداً لتشريعات وتوجيهات أساسية بالنسبة لحياة الأمة ومستقبلها ، وإذا كانت غزوة تبوك هى المحنة أو الامتحان ، فإن سورة التوبة وهى براءة هى نتيجة الامتحان ، وهى نتيجة حافلة بالتشريعات والتنظيمات والتوجيهات للمسلمين عليهم طاعتها والعمل بها حتى يطوى الله الأرض وما عليها ، وقد أوحى الله إلى رسوله بأن يحتفل بهذه الغزاة أعظم الاحتفال ويعد لها ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل ليرهب عدو الله وعدو الإسلام ، فأعلن الرسول عن وجهته ودعا أهل المدينة جميعاً ومن حولها من الأعراب للاشتراك فى الغزاة ، وتطوع القادرون بالمال والسلاح ، وجاءت النساء بالمصوغ وبسطت ملاءة خارج حجرة السيدة عائشة ليضع فيها القادرون ما يريدون التبرع به .

واجتمع لرسول الله ﷺ ثلاثون ألف مقاتل فيهم عشرة آلاف فارس ، وتخلف عن رسول الله ناس وقعد عن الخروج ناس دون عذر ، وكانت قد بلغت رسول الله أنباء عن استعداد الروم وجمعهم قوة عظيمة للمسير لحرب المسلمين ، ولكن رسول الله عندما وصل إلى تبوك تبين له أن هذه الأخبار غير صحيحة ، فتلبث عند تبوك حتى أتاه عدد من قبائل عرب الروم مسلمين وانحاز بعضهم إلى الروم ، وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى قوة أدخلت اكيدر صاحب دومة الجندل فى طاعة الإسلام ، وعاد الجيش الجرار إلى المدينة ، وقد عانى الناس أهوالاً فى الذهاب والعودة ، فقد كان الوقت نهاية الخريف وبداية الشتاء والأراضى لا زروع فيها ، وكانت الحرارة إلى جانب ذلك شديدة فى بعض الأيام ، وقلت الأقوات والمياه فى مناسبات كثيرة ، ولهذا وصفت غزاة تبوك بأنها غزوة العسرة . وقد كانت نتيجة استسلام دومة الجندل أن استسلمت بعد ذلك أيلة على طرف خليج العقبة ، واستسلمت تيماء وجربا واذدرح ثم مقفا على البحر الأحمر .

ولكن عبرة تبوك كلها فى سورة براءة أو سورة التوبة التى قلنا إنها بدأت تَتَنَزَّل على رسول الله وهو فى طريق عودته إلى المدينة ، واستمرت تتنزل بعد وصوله كاشفة للناس أسرار ما فعلوا ومنبهة إلى الأخطاء ومنذرة بالعقاب للمخالفين ومبشرة بالثواب للمحسنين ، ولهذا سميت بالكاشفة والفاضحة والمنذرة والمبشرة والجانب الكبير من آياتها يتضمن تشريعات خاصة بالجهاد وفرض وجوبه على المسلمين ، فلننتقل إليها الآن . فهذا هو بيت القصيد من فصلنا هذا عن الجهاد .

سورة التوبة جليلة حفيلة حاسمة فى تاريخ الأمة وسنختزىء منها هنا بما يخص الجهاد وتشريعه وتنظيمه مع الإشارة إلى مواقف المنافقين وما أعد الله لهم من سوء العذاب ، وسندع من آيات الجهاد ما سبق أن أتينا به فيما سلف . قال الحق سبحانه فى سورة التوبة :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذين آمنوا مالكمْ إذا قيلَ لكم انفروا فى سبيل الله اثَّاقلتمْ إلى الأرض أَرَضيتمُ بالحياة الدنيا من الآخرة فما مَتاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليلٌ . إلا تنفِروا يعذبكمْ عذاباً أليماً ويَسْتَبْدِلْ قوماً غيركمْ ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قديرٌ . إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الَّذينَ كفروا ثانى اثنين إذْ هُمَا فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزنْ إنَّ الله معَنا فانزل الله سكينته عليهِ وأيده بجنودٍ لم تروها وجعل كلمَة الذين كَفروا السُفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيزٌ حكيمٌ . انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . لو كان عَرَضاً قريباً وسَفَراً قاصداً لاتبعوك ولكن بَعُدَت عليهم الشقة وسَيَحْلفون بالله لو استطعْنَا لخرجْنَا معكمْ يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون . عفا الله عنك لِمَ اذنت لهمِ حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبينَ . لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن

يُجاهِدُوا بأموالِهِم وأنفُسِهِم واللهُ علِيم بـالمُتقِين . إنما يَسْتأْذِنُك الـذِين لا يُؤمنُون بِاللهِ واليومِ الآخِرِ وارْتَابت قلوبهم فهم فى رَيْبِهِمْ يتردَدونَ . ولو أرادوا الخروج لأعـدوا لـه عـدّة ولكن كَـره الله انبعـاثهمْ فثبطهمْ وقيل اقعُدوا مع القاعـدينَ .لو خـرجوا فيكم مـازادوكم إلا خبالاً ولأوْضَعُـوا خلالكـمْ يبغونكم الفتنة وفيكـمْ سمَّاعونَ لهم والله عَليمٌ بـالظالمين ﴾

[التوبة ٩/ ٣٨ـ ٤٧] .

هـذه آيـات بينات تبين دون أدنى شبهـة أن الجهـاد فـرض عين ، وأن كل مؤمن قادر على القتال مكلف بـالخروج والاستعداد للجهاد فى سبيل الله ، وهذا الاستعداد ينبغى أن يكون صـادراً من داخل النفس ، فلا يتوقف لـزومه على أمر أمر أو رغبة رئيس يدعوه للخروج عندما يريـد ويأمره بالقعود عندما يريد . لأن هذا داعى الجهاد فى سبيل الله لا فى سبيل إنسان أو وجه غير وجه الله ، والجهاد المفروض هنـا ينبغى أن يكون بـالنفس والمال ، فيجود الإنسـان بنفسه ومـاله فى سبيل الله عن نفس راضية ، أما إذا خرج الإنسان للجهاد عن غير إيمان أو رغبة صادقـة فلا خير فى جهـاده ، لأنه فى الحقيقـة غير مؤمن إيمانـاً صحيحاً ، لأن الجهـاد والجود بـالنفس والمال فى سبيل الله هـو الـدليل البين على الإيمان ، وهل هناك أعـز على الإنسان من نفسه ومالـه ؟ فإذا هو كان على استعـداد للجود بهما عن رغبة صادقه فهنا يكون الإيمان الصحيح ، وهنا يكون الجهاد عظيم القيمة . هنا تغلب الفئة القليلة الفئة الكبيرة بإذن الله .

ومن غريب الأمر أن المقاتل الصادق المقبل على الجود بنفسه نادراً ما يقتل ، إنما الذى يقتل ويصاب هو الجبان المتردد الذى يخرج للجهاد مكرهاً ، ومن أكبر الدلائل على ذلك أن المسلمين لم يخسروا فى معركة حنين ـ وكان عددهم فيها فوق العشرة آلاف ـــ إلا أربعة شهـداء ذكـرهم المؤرخون بـالاسم . وحنين كـانت من المعـارك العسيرة التى خـاضها المسلمـون تحت رايـة رسول الله ﷺ فقـد طـالت

ساعات أو بدأت فى وادى حنين ثم استمرت فى سهل أوطاس وانتهت قرب المغيب .

ونحن مأمورون أن ننفر خفافاً وثقالاً . أى سواء أكان علينا سلاح خفيف أم ثقيل ، لأن الأسلحة لا تنتصر بنفسها ولكنها تنتصر بالناس ، وفى أيامنا هذه التى نتصور فيها أن المسألة مسألة سلاح تنتصر جماعات صغيرة مجاهدة فى سبيل قضاياها عن إيمان ، على أمم ضخمة السلاح والعتاد . وإذكروا كيف انتصر الجزائريون بالسلاح الخفيف على الفرنسيين ومعهم سلاح الدنيا ، وانتصر الملك عبد العزيز آل سعود على قوى تفوق قواته بكثير بقوات قليلة وسلاح أقل ، وانتصر أهل فيتنام على الفرنسيين فى ديان بيان فو ثم على الأمريكيين ، وانتصر المصريون والسوريون على إسرائيل فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ولدى إسرائيل ترسانة رهيبة من الأسلحة وراءها ترسانة أضخم هى ترسانة الولايات المتحدة .

والله سبحانه يعتب على رسوله أن أذن فى التخلف عن الخروج إلى تبوك لنفر سألوه الإعفاء . وتعللوا بتعلات واهية ، وكان لابد أن يتركوا لأنفسهم حتى يتبين له الذين صدقوا والكاذبين ، ومجرد استئذانهم دليل على ضعف إيمانهم وشاهد على أن فى نفوسهم ريباً فهم فى ريبهم يترددون . وعدم خروج هؤلاء أفضل لأنهم يضعفون قلوب المجاهدين .

فهل يبقى بعد ذلك شك فى أن الجهاد فرض عين ؟

إن الإنسان ليتعجب كيف لم يجمع الفقهاء على فرضية الجهاد .

حقاً إن هناك آية تقول ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ [التوبة ٩/ ١٣٢] . وهذه الآية لا تبيح لأى من المؤمنين أن يقعد عن الجهاد لأن القتال فرض ، ولكن تنفيذه لابد أن يتم على نظام ، فليس

من الممكن أن ينفر كل المؤمنين فى كل حين ، لأنه لابد أن يبقى فى الوطن من يسير أموره ويمد المقاتلين بالزاد والعتاد ، وإنما المطلوب أن يخف للقتال من عليه الدور حسب نظام يضعه المشرفون على مسائل الدفاع فى الأمة ، وها نحن أولاء اليوم جعلنا الخدمة العسكرية إجبارية على جميع المواطنين وكل منا يقوم بالخدمة العسكرية لفترة معينة ثم يعود إلى حياته العادية ، وفى معظم بلاد الدنيا يعود المواطن إلى الخدمة العسكرية فترة قصيرة كل عام لكى يتدرب على الآلات المستخدمة ثم لكى لاتموت فى قلبه حماسة القتال والرغبة فى المشاركة فى شرف الدفاع عن الوطن .

واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ ما كانَ لأهل المدينةِ ومن حَوْلَهَا من الأعراب أن يتَخلفوا عن رسول الله ولا يَرْغبوا بانفسِهم عن نفسِه ذلك بانهُم لا يصيبهم ظما ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون مَوْطِئاً يغيظ الكفار ولا ينالُون من عدو نيلاً إلا كتبٌ لهم بهِ عملٌ صالح إن الله لا يُضيع أجر المحسِنِين ولا يُنفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعُون وادِياً إلا كُتب لهمْ ليجزيَهُم الله أحسن ماكانوا يعملون ﴾ [التوبة ٩/ ١٢٠ ـ ١٢١] .

ومن أغرب ما قرأت عند بعض المفسرين أن يقولوا إن هذه الآيات خاصة برسول الله وعصره والأعراب الذين كانوا ضاربين حول المدينة . وهؤلاء يغيب عنهم أن رسول الله هنا هو رمز الإسلام ، فالمجاهدون فى الحقيقة لا يجاهدون فى سبيل رسول الله بل فى سبيل الإسلام ، أما الأعراب حول المدينة فكل أمة الإسلام فى منزلة الأعراب حول المدينة ، فالحكم هنا قائم أبد الدهر .

أتدرى أن عدم إصرار أهل الفقه جميعاً على فرضية الجهاد كان من أكبر أسباب تدهور الدول الإسلامية وتأثيرها ؟ .

فإن ذلك فتح أمام الحكام باب استخدام الجند المرتزق ، فدرجوا عليه من بداية الدولة الأموية ، ومعاوية بن أبى سفيان جعل الأعراب المجاهدين جنداً مرتزقاً يحاربون فى سبيله وسبيل دولته ، فقتل فى نفوسهم عرق شرف الجهاد ، وجعل يضع فى يد الأعرابى المرتزق مائة دينار ويسلطه على المسلمين من أعدائه فيضع فيهم السيف ، وجاء ابنه يزيد فوضع فى يد الأعراب نفس المال وأمرهم بقتل الحسين وآله فساروا وقتلوا الحسين ومن معه من آل البيت ، وجاء مروان بن الحكم فسلط مسلم بن عقبة المرى على الحرم الشريف ومدينة الرسول ﷺ فسار إليهما وفعل بهما ما لم يفعله كافر قط .

ونتيجة لذلك أخرجت أمة الإسلام من ميدان الشرف ، وتسلط عليها الجبابرة بالجند المرتزق ، وقد وفق الله سبحانه رسوله فى تحويل أمة الإسلام إلى جيش مجاهد فى سبيل الله وبعث فيهم بذلك عزة ونخوة وقوة ، فجاء هؤلاء المفسدون فأخرجوا الأمة من ميدان الجهاد بل استخدموا الجند المرتزق فى إذلال الأمة ، وعلى هذا درجت كل دول الإسلام ، فكانت كلها دول ظلم وإذلال وخروج عن شرع الله ، والعباسيون الذين أخرجوا العرب من ميدان الشرف واعتمدوا على الجند الإيرانى ثم التركى المرتزق ، جاء عليهم يوم أصبحوا فيه أذل من الكلاب بين أيدى الجند المرتزق .

إن الجهاد فى سبيل الله والوطن يبعث فى النفس العزة والشهامة والشعور بالكرامة ، والأمم التى تراها اليوم قائدة وسيدة وصلت إلى ذلك عن سبيل القتال فى سبيل أديانها وأوطانها ، ومن العزة والشهامة والكرامة تنبع كل فضيلة وكل ميزة عقلية أو نفسية ، فهذه الأمم نفسها هى التى تقود فى ميدان العلم والفكر والاختراع والمال .

***